الصلات الدبلوماطيقية

بين

هرون الرشيد وشارلمان

محاضرة القيت في نادي القلم

ببغداد

بقلم

الدكتور مجيد خدوري

مطبعة التفيض الاهلية ـ بغداد

١٩٣٩

تقدمة لأستاذي الدكتور اسد رستم الأكرم

٢٧ شباط / ١٩٢٩

بغداد محمد صدر



كتب اخرى للمؤلف

قوانين الحرب والسلم عند العرب

رسالة بالانكليزية تحت الطبع ، وهي اطروحة
الدكتوراه التي قدمها المؤلف الى جامعة شيكاغو

تحرر العراق من الانتداب

بغداد : مطبعة العهد . سنة ١٩٣٥

المسألة السورية

الموصل : مطبعة ام الربعين . سنة ١٩٣٤

اسباب الاحتلال البريطاني للعراق

الموصل : مطبعة الشعب . سنة ١٩٣٣

نظام الانتداب

الموصل ام الربيعين . سنة ١٩٣٣



المقدمة

اثير حول صلات الخليفة هرون الرشيد بالامبراطور شارلمان مساجلة طويلة بين بعض الكتاب الغربيين فوضعوا نظريات خطيرة لتعليل طبيعة تلك الصلات من الوجهتين التاريخية والقانونية. ولما كان هذا الموضوع اكثر مساساً بحياتنا الثقافية رأى كاتب هذه الرسالة ان يدرس آراء ونظريات اولئك الكتاب ثم تناولها بالنقد والتقدير من وجهتيها التاريخية والقانونية.

بغداد
١٠—٢—١٩٣٩

م. خ



الفهرس



توطئة

نجد المصادر الاولى الباحثة في موضوع الصلات الدبلوماطيقية بين هرون الرشيد وشارلمان فرنجية ، ذلك لأن المصادر العربية الاولى ساكتة سكوتاً تاماً عن هذا الموضوع ، وقد ساق هذا السكوت الاستاذ بارتولد الروسي (W. W. Barthold)الى انكار تاريخية هذه الصلات ، لأنه يعتبر الغموض في المصادر اللاتينية واضطراب رواياتها وسكوت المصادر العربية المعاصرة اسباباً كافية لنفي هذه الصلات (١) . وربما كان اول كتاب عربي ذكر هذه الصلات هو

---

(١) يؤيد الاستاذ بارتولد بموقفه هذا رأى كاتب آخر اسمه بوكيفله (Pouqueville) الذى نشر رسالة بالفرنسية سنة ١٨٣٣ انكر فيها وجود مراسلات دبلوماطيقية بين هرون الرشيد وشارلمان . وقد كتب الاستاذ بارتولد مقالا ضافيا باللغة الروسية يدعم فيها هذا الرأى . ولا توجد ترجمة كاملة لمقال الاستاذ بارتولد ولكن الاستاذ بكلر (Buckler) قد ذيل كتابه « هرون الرشيد وشارلمان » (*Harun'ul-Rashid and Charles the Great*) المطبوع فى اميركا سنة ١٩٣١ بملخص جيد لذلك المقال (انظر الصفحات ٤٣ — ٤٧) . ويوجد تلخيص ونقد آخرين فى اللغة الالمانية للاستاذ شمت (F. F. Schmidt) فى مجلة « الاسلام Der Islam » لمنشئها الاستاذ بكر (Becker) المجلد ٣ ص ٤٠٩ — ٤١١ .

كتاب الاستاذ جميل نخلة المدوّر المسمى « كتاب حضارة الاسلام في دار السلام[٢] » . إلا ان الاستاذ المدور لا يذكر من اين استمد هذه الفكرة مع انه يكثر من الاشارة الى المصادر العربية الاولى ، بيد ان هذه المصادر ذاتها لا تذكر شيئاً بشأن هذا الموضوع[٣]

فهل نوافق الاستاذ بارتولد ونرفض تاريخية الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان على اساس سكوت المصادر العربية ؟ ان قاعدة الاعراض عن المناقشة او التفكير في موضوع حين سكوت المصادر التاريخية عنه[٤] غير قابلة التطبيق هنا لأن سكوت المصادر العربية المعاصرة وعدم دعمها رواية المصادر اللاتينية لا ينفيان تاريخية الصلات فقد يكون ثمة اسباب لهذا السكوت[٥] . ويرى الكاتب الروسي

---

(٢) المطبوع فى مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٨ . راجع الصفحات ٢٦٦ — ٣٠٤ .

(٣) قد يكون الاستاذ المدور استقى الفكرة من مصادر فرنجية او قصص الف ليلة وليلة على ما يرتأى الاستاذ بارتولد فى بعض من كتب فى هذا الموضوع (راجع ملحق الاستاذ بكلر الاول ص ٤٣) . وقد اعتمد الاستاذ فازيلييف الذى نقد مقال الاستاذ بارتولد ، فى جملة ما اعتمد عليه ، على الاستاذ المدور (راجع بكلر . الحاشية ص ٢٥) .

(٤) تسمى هذه القاعدة عند الباحثين بحجة السكوت (Argument from silence) .

(٥) لقد بحث بعض الكتاب فى الاسباب التى جعلت المصادر

ڤازيلييف(Vasiliev) الذي نقد مقال الاستاذ بارتولد مؤيداً تاريخية الصلات بين الرشيد وشارلمان ان المصادر اللاتينية المعاصرة صحيحة على وجه الاجمال ويوافقه في ذلك اكثر علماء العصور المتوسطة (٦) اما ان هذه المصارر قد بالغت في شأن هذه الصلات فهذا موضوع آخر سنتناوله فيما بعد .

العربية المعاصرة ساكتة عن هذه القضية وذهبوا فى تعليل ذلك مذاهب شتى . فالاستاذ جورنسن (Joranson) يرى ان المصادر العربية لم تذكر الصلات بشارلمان على فرض ان المؤلفين المسلمين لا يوافقون على تحالف الخليفة مع عاهل مسيحى . ولا نرى رأى الاستاذ جورنسن لان المصادر العربية المعاصرة ذاتها تذكر صلات العرب بالبيزنطيين وتذكر معاهدات صلح عقدها معاوية ومروان معهم . راجع مقال الاستاذ جورنسن « المحمية الفرنكية المزعومة فى فلسطين » (*The Alleged Franhish Protectorate in Palestine*) فى مجلة التاريخ الامركية ، ج ٤٢ (كانون الثانى سنة ١٩٢٧) الحاشية ص ٢٥٨ . وربما كان السبب الذى من اجله سكتت المصادر العربية ان المؤرخين العرب لم يروا فى مجرد ان يمر وفد اجنبى ببغداد شأنا ذا خطر ومن المحتمل انهم لم يعلموا باتصال الوفد بالخليفة وما دار من الحديث . وقد تكون المصادر اللاتينية ايضا مغالية فى شأن المراسلات بين الخليفة وشارلمان تعظيما لذلك العاهل الاوربى .

(٦) راجع مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩

تذكر المصادر اللاتينية المعاصرة اخباراً مقتضبة متعلقة بالصلات بين شارلمان وهرون الرشيد وهي غامضة الغموض كله من حيث عوامل انشائها . اما المصادر المتأخرة عن ذلك العصر فتنسج قصصاً مفصلة ولكن شأنها قليل من الوجهة العلمية . واما المصدر اللاتيني المعاصر فهو « الاخبار الملكية الفرنكية » (*Annales Regni Francorum*) وما جاء فيه جد مقتضب لا يشفي غليل الباحث في تعيين طبيعة تلك الصلات . وقد عرض آينهارد (Einhard) لتفصيل هذه الصلات في كتابه « سيرة الامبراطور شارل الكبير » (*Vita Caroli Magni Imperatoris*)(٧) ومن المتفق عليه الآن ان آينهارد اعتمد في روايته على « الاخبار الملكية الفرنكية » مع الاقرار ايضاً بانه كان مطلعاً بنفسه على المراسلات الدبلوماطيقية في القرن التاسع في بلاط شارلمان وربما علق بذهنه بعض الاخبار التي ذكرها في كتابه فضلا عما جاء في الاخبار الملكية . إلا ان آينهارد لا يعتمد عليه كثيراً علماء العصور المتوسطة ويرون في مؤلفه في شارلمان كثيراً من الشطط(٨) .

---

(٧) وقد نشر هذا الكتاب فى باريس المسيو هلفن (L. Halphen) سنة ١٩٢٣ .

(٨) راجع كتاب المسيو هلفن « دراسات انتقادية لتاريخ شارلمان » وعنوانه :

أما اول دراسة علمية حديثة للموضوع فهي بقلم الكونت دي ريان (Comte de Riant) فى اواخر القرن التاسع عشر، وهي تحقيق دقيق مبني على فرض ان المصادر اللاتينية صحيحة فى روايتها(٩). أما المباحث الانتقادية فهي حديثة العهد جداً . واول من تطرق فى التعرض للموضوع الاستاذ بارتولد ، فهو ينفي تاريخية الصلات الدبلوماطيقية على ما جاء فى المصادر اللاتينية ويستنتج فى خاتمة بحثه ان هذه القصة ربما كان مصدرها دخول افراد من الفرنجة البلاد الاسلامية وافراد من المسلمين فى الامبراطورية الفرنكية على ما كان يجري يومئذ بدافع التجارة ، ففسرها البعض تبادل سفراء بين خليفة المسلمين والامبراطور شارلمان. ويرى ان مافى المصادر اللاتينية من الاخبار لا يكفي لتصديق تلك الصلات فى حين ان المصادر العربية المعاصرة لا تذكرها . لذلك ينكر تاريخية الصلات

L. Halphen, *Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne* (Paris : Felix Alcan, 1921), PP. 78 - 79.

(٩) راجع قائمة باسماء اشهر من بحث فىالموضوع بقلم ستيفن رنسيمان فى مقاله « شارلمان وفلسطين » فى مجلة التاريخ الانكليزية المجلد ٥٠ ص ٦٠٦ (الحاشية) :

Steven Runciman, "Charlemagne and Palestine", *The English Historical Review*, Vol. L, Oct. 1935, P. 606 n.

بين الرشيد وشارلمان(١٠) . وقـــد رد على الاستاذ بارتولد زميله الاستاذ ڤازيلييف ونشأت مساجلة بين الاثنين اتسع نطاقها باشتراك علماء آخرين ، فلقيت وجهة نظر الاستاذ ڤازيلييف صدى استحسان لدى المؤرخ الفرنسي لويس بريه (Bréhier) فاستخلص من دراسته للمصادر اللاتينية ومن آراء ڤازيلييف والكونت دي ريان ان شارلمان حصل من الرشيد على حماية الاراضي المقدسة(١١) وقد رأى رأيه هذا كلينكلوز(١٢) وانتقده الاستاذ آينار جورنسن(١٣) فرد

---

(١٠) راجع كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر ، الملحق الاول ص ٤٧ .

(١١) تجد اراء المسيو لويس بريه فى المقالين التاليين :

Louis Bréhier, "Les Origines des Rapports entre la France et la Syrie : le Protectorat de Charlemagne", *Chambre de Commerce de Marseilles : Congrès Français de la Syrie, Fasc.* 2 (Marseilles et Paris, 1919).

————, "La Situation de Chretiens de Palestine à la fin du 13e siecle et l'etablissement du Protectorat de Charlemagne", *Moyen Age,* Vol. XXI, 1919, PP. 67 - 75.

(١٢) راجع مقال كلينكلوز « اسطورة حماية شارلمان للاراضى المقدسة » :

A. Kleinclausz, "La Légende du Protectorat de Charlemagne sur la Terre Sainte", *Syria,* Vol. VII, 1926, PP. 211 - 233.

(١٣) راجع مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ص ٢٤١ ـ ٢٦١

على ذلك المسيو بريبه فى مقال عدل فيه نظريته فى الحماية متأثراً من تحليل الاستاذ جورنسن لطبيعة الصلات بين الرشيد وشارلمان(١٤)

واخيراً جاء الاستاذ بكلر (F. W. Buckler)(١٥) بنظرية جديدة ذهب فيها الى ان الصلات بين الرشيد وشارلمان اسفرت عن تعيين شارلمان امير فتح على اسبانيا وواليا على القدس فى ضمن الخلافة العباسية(١٦) . وقد نقد هذه النظرية فريق من العلماء منهم الاستاذ جورنسن الذي فندها فى مقال موجز قرظ فيه كتاب الاستاذ بكلر (١٧).

أما باقي المراجع فدون هذه شأواً وهي على العموم لا تتعدى احد التصانيف المذكورة واغلبها تلخيص لوجهات النظر السابق

---

(١٤) راجع مقال المسيو بريبه « شارلمان وفلسطين » :
Louis Bréhier, "Charlemagne et la Palestine", *Revue Historique,* Vol. CLVII, 1928, PP. 277 - 290.

(١٥) راجع كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر .

(١٦) بكلر ص ٣٥ .

(١٧) راجع نقد الاستاذ جورنسن لكتاب الاستاذ بكلر :
Einar Joranson, "F. W. Buckler, Harun'ul-Rashid and Charles The Great", *Speculum : A Journal of Medieval Studies,* Vol. VII, Jan. 1932, PP. 116 - 121.

ذكرها . منها مقال الاستاذ رنسيمان « شارلمان وفلسطين »[١٨] الذي لخص فيه آراء من بحث عن الموضوع مع اضافات قليلة عنها . ونجد فى العربية مقالا للسيد زهدي الداية عنوانه « هارون الرشيد وشارلمان : هل كانت بينهما علاقات ؟ »[١٩] ويلخص الكاتب في هذا المقال آراء كلينكلوز وبرييه باقتضاب كثير . وللاستاذ محمد عبد الله عنان فصل فى هذا الموضوع فى كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » ولكنه شديد الاضطراب فهو يمزج بين اغراض وفود بطريق القدس ووفود شارلمان[٢٠]

—:o:—

(١٨) راجع مقال الاستاذ رنسيمان الآنف الذكر ص ٦٠٦— ٦١٩ .

(١٩) راجع مجلة « الهلال » ، مايو سنة ١٩٣٢ ، ص ٩٦٨— ٩٧٠ .

(٢٠) راجع «مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » القاهرة : مطبعة الجديد ، سنة ١٩٢٩ ، ص ٣٢ — ٣٨ .

الفصل الاول

الصلات الدبلوماطيقية بين العباسيين والفرنك

قبل عهد هرون الرشيد

١ ـ الوضع السياسي العالمي
في اوائل عهد الخلافة العباسية

في اليوم الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هجرية (٢٥ كانون الثاني سنة ٧٥٠ ميلادية) سار عبد الله بن علي (عم ابي العباس) من الكوفة ، وقد تسلم القيادة العليا للجيوش العباسية ، متوجهاً نحو الشمال فالتقى بجيوش الخليفة الأموي عند الزاب واشتبك الفريقان في معركة فاصلة ثل بها عبد الله بن علي عرش مروان آخر خلفاء بني أمية فانتقلت الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العباسي .

وبعد نحو سنتين من هذا التاريخ (سنة ٧٥٢) كان پيپين (Pippin) القصير حاجب بلاط الملك شلدريك الميروفنجي وجد من الضعف الشديد الذي حل ببيت الملك ما يسوغ اعتلاءه اريكة

الملك . فارسل وفداً إلى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكا هل حامل لقب بلا قوة أو صاحب قوة بلا لقب ؟ وكان البابا حينئذ راغباً فى قيام دولة قوية في الغرب يعتمد عليها فى مقاومة القسطنطينية التي كانت خارجة على كنيسة روما ، فاجاب بان صاحب القوة يجب أن يحمل اللقب أيضاً . فاعلن پيين من فوره اعتلاءه العرش وأرسل شلدريك الى دير ليمضي بقية حياته هناك . فانتقل الملك الى البيت الذي سمي بعد ذلك بالبيت الكارولنجي .

لقد كان لارتقاء البيتين العباسي والكرولنجي الى الحكم أثرخطير في تطور السياسة العالمية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي . فالعداء القديم المستحكم بين الفرس والبيزنطيين على الحدود ورثته الدولة العباسية وظهر نزاعاًشديداً بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية(١) . كما أن العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والفرنك في الغرب لم تكن ودية . وكان البابا يسعى دوما لمنع التقرب بينهما . فلما حاول كل من الملك پيين والامبراطور قسطنطين الخامس تسوية الاختلافات بينهما (سنة ٧٦٥) أرسل البابا بولس الاول

---

(١) ابتدأت المناوشات الحربية بين العباسيين والبيزنطيين منذ عهد المنصور ، وكان الخلفاء العباسيون اعتادوا تجريد الجيوش

كتابا الى پپين يسأله أن يشترط فى مفاوضاته مع قسطنطين أن تعترف القسطنطينية بافضلية الكنيسة البابوية وأن تحترم عبادة الصور المقدسة(٢) وقد أدى تدخل البابا هذا الى فشل المفاوضات وبقاء

لغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف ، فكان الخلفاء ينتصرون طورا فيضطرون الامبراطرة الى دفع الجزية وطورا ينقض الامبراطرة العهود ويعبرون الحدود الى داخل الدولة العباسية . وقد حدث ذلك فى عهد كل من المنصور والمهدى والرشيد ومن عقبهم من الخلفاء . راجع تطور هذه الحوادث فى كتاب ابن الاثير : الكامل لناشره تورنبرغ (C. J. Torenberg) مطبعة ليدن ، سنة ١٨٧١ ، ج ٦ الصفحات ٢ و ٤٢ و ١٢٦ . وراجع ايضا الاستاذ محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ، مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر ، سنة ١٩٢١ ، الصفحات ٨٩ و ١٠٤ — ١٠٥ و ١٤٥ — ١٤٩ . وايضا الفصل الخامس بقلم الاستاذ بروكس (E. W. Brooks) فى النزاع بين العباسيين والبيزنطيين فى كتاب تاريخ العصور المتوسطة لكمبردج (*Cambridge Medieval History*) لناشر الاستاذ تانر (J. R. Tanner) وآخرين ، ج ٤ ، مطبعة جامعة كمبردج ، سنة ١٩٢٧ ، ص ١١٩ وما بعدها ..

(٢) لعبت قضية النزاع بين الكنيسة البيزنطية فى الشرق والبابوية فى روما دورا خطيرا ولا سيما اختلاف وجهتى نظرهما حول عبادة الصور والتماثيل المقدسة ، وحاول البابوات فى جملة محاولاتهم ان يحلوا هذا النزاع بالاستعانة بالامبراطرة الفرنك ، ولكن النزاع لم ينته وتقلب فى ادوار مختلفة فى سلسلة النزاع بين البيزنطيين

العداء بين الكارولنجيين والبيزنطيين[٣] .

وكان فى الوقت ذاته يسعى كل من بني العباس والفرنك أن يخضعوا أسبانيا ويضموها الى ممتلكاتهم . فمن الوجهة الشرعية كانت اسبانيا جزءاً من « دار الاسلام » وكانت تابعة نظريا للخليفة . أما عبد الرحمن الداخل فقد توصل الى الحكم بالقوة ولم يعترف بسلطان الخليفة على اسبانيا ، فكان من هذه الوجهة خارجا على الخليفة واعتبر هو واتباعه بغاة [٤]. وقد حاول المنصور عبثاً أن

والبابوية . راجع تفصيل هذا النزاع فى الفصل الذى كتبه الاستاذ ديل (Charles Diehl) فى الجزء الرابع من تاريخ العصور المتوسطة لكمبردج .

(٣) راجع كتاب الاستاذ بكلر : «هرون الرشيد وشارل الكبير » ص ٧ ــ ٨ وعنوانه :

F. W. Buckler, *Harun'ul-Rashid And Charles the Great* (Cambridge, Mass., Medieval Academy of America, 1931) PP. 7 - 8.

(٤) للخليفة شرعا السيادة العليا فى دار الاسلام او العالم الاسلامى كافة ومن خرج على طاعته كان خارجا او باغيا او محاربا قاطع طريق . راجع الماوردى : كتاب الاحكام السلطانية (مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٩٠٩) ص ٤٤ ــ ٤٥ . اما عبدالرحمن الداخل فلم يخرج على الدين ولكنه نبذ طاعة الخليفة فى اسانيا فكان باغيا ــ

يخضع عبد الرحمن ويجلب اسبانيا الى حظيرة دار الاسلام ولكنه لم ينجح . ففي سنة ٧٦٣ أمر المنصور والي القيروان العلاء بن مغيث اليحصبي أن يغزو اسبانيا ويقضي على عبد الرحمن بمساعدة المضريين الذين كانوا موالين للعباسيين(٥) فركب العلاء البحر وسار باسطوله الى أن نزل ثغر باجا (Beja) ، إلا أن عبدالرحمن هاجمه فوراً وقضى

وربما كان ابن خلدون الكاتب العربى الوحيد الذى جاء بفكرة امكان وجود خليفتين فى دار الاسلام ، وحجته فى ذلك ان الدولة الاسلامية اذا ما توسعت كثيرا واصبح امر الدفاع عنها صعبا وجب اقتسامها بين خليفتين او اكثر ليسهل امر الدفاع عنها . راجع « المقدمة » ، وتجد تحليل هذه الفكرة والدوافع للاخذ بها فى كتاب الدكتور طه حسين : « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ، وقد ترجمه عن الفرنسية محمد عبدالله عنان (مطبعة الاعتماد بمصر ، سنة ١٩٢٥) ص ١٣٣ — ١٣٥ .

(٥) كان فى اسبانيا جبهتان الواحدة تناصر عبدالرحمن الداخل وجلها من اليمانيين وبعض قبائل البربر ، والاخرى مؤلفة من المضريين ويرأسهم يوسف بن عبدالرحمن الفهرى . وكان يوسف قد ترأس الحكم واستبد بالامر دون ان يفسح المجال لليمانيين فلقيت دعوة عبد الرحمن نصيرا منهم . فلما انغلب المضريون على امرهم رحبوا بحملة العلاء ليقضوا على سلطة عبدالرحمن وعلى سيطرة اليمانيين . راجع كتاب انيس النصولى : « الدولة الاموية فى قرطبة » (المطبعة العصرية ببغداد سنة ١٩٢٦) ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .

على حركته وقتل من ناصره من مقاوميه فحبطت الحملة فى مهمتها . ولما بلغ المنصور ماحل بحملة العلاء صرخ قائلا : « الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ![٦] » . وهكذا بقيت اسبانيا خارجة على سلطان الخليفة وبقيت الصلات بين البيتين العباسي فى بغداد والاموي فى قرطبة عدائية .

أما الفرنك فكانوا ايضاً يحاولون أن يمدوا نفوذهم الى ماوراء جبال البرانيس وكانوا يمدون يد المساعدة الى المضريين على الحزب اليماني المناصر لعبد الرحمن . إلا انه كان فى جنوبى فرنسا قسم من الغول الناقمين على الفرنك يساعدون البربر على الفرنك ويعرقلون مساعيهم . وحدث ان زوج أحد أمراء الغول ، الكونت اودو(Eudo) ، ابنته من زعيم بربري لتوثيق عرى الصداقة بين الغول والبربر . الا ان الغول لم يتمكنوا من صد زحف الفرنك واستطاع ببين اخيراً (سنة ٧٥٩) ان يزحف جنوباً حتى استولى على ناربونة[٧] ولكنه توقف عند هذا الحد طول مدة حكمه اذ شغلته البابوية بامور القسطنطينية

(١) راجع البحث فى حملة العلاء بن مغيث فى المقرى : « نفح الطيب » لناشره الدكتور احمد فريد رفاعى (مطبعة عيسى البابى بمصر ، سنة ١٩٣٦) ج ٣ ص ٨٥ — ٨٩ .

(٧) راجع كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر ص ٦ — ٧ .

وهكذا بقيت اسبانيا آمنة غارات الفرنك الى ظهور شارلمان .

فترى من ذلك أن الوضع السياسي العالمي في عهد الخليفة المنصور في الشرق والملك ببين القصير في الغرب قد ساعد على انشطار الدول آنئذ الى جهتين . فمن الوجهة الواحدة كانت الصلات بين الدولتين المسيحيتين ، البيزنطية والفرنكية ، عدائية . وأيضاً كانت الصلات بين الدولتين الاسلاميتين ، العباسية والاموية في الاندلس ، عدائية . ومن الوجهة الأخرى ، كان كل من الدولتين العباسية والبيزنطية فى نزاع سياسى مستمر ، وكذلك الدولتان الاموية والفرنكية كانتا في نزاع سياسي مستمر . وهذا ماجعل بالطبع اعداء الأمويين والبيزنطيين ، وايضاً اعداء العباسيين والفرنك ، ذوي مصالح مشتركة فى عدائهم . وربما كانت هذه المصالح المشتركة لدى كل من الجهتين باعثاً على فتح المراسلات الدبلوماطيقية بين خلفاء بني العباس والملوك الكارولنجيين .

٢ — الصلات الدبلوماطيقية

بين المنصور وبيبين القصير

في سنة ٧٦٥ ميلادية أوفد بيبن القصير وفداً الى بلاط الخليفة المنصور ثم عاد ذلك الوفد بعد ثلاث سنوات (حوالي أوائل سنة ٧٦٨) بطريق مارسيليا مصحوبا برسل من الخليفة حاملين هدايا الى الملك بيبن . ولا تذكر المصادر المعاصرة شيئاً عن مهمة هذا الوفد البتة ولا عما اسفرت عنه مفاوضاته مع الخليفة . وقد استقبل الفرنك رسل الخليفة بحفاوة واكرام واعدت لهم مساكن لقضاء الشتاء فى متز(Metz) وضرب لهم الملك بيبن موعداً للمقابلة الرسمية فى ١٠ نيسان سنة ٧٦٨ فى مدينة سيلس(Sellus) وهناك جرت مراسيم الترحيب بالوفد الذي قدم رسمياً هدايا الخليفة المنصور الى الملك بيبن القصير . ثم أمر بيبن أيضاً بتقديم هدايا الى الرسل العرب ليحملوها الى الخليفة وارسل وفداً يوصلهم الى مارسيليا حيث اقلتهم من هناك سفينة الى المشرق (٨) . والمصادر الفرنكية ساكتة عن تفاصيل

---

(٨) راجع مقال الاستاذ الدكتور آينار جورنسن : « المحمية الفرنكية المزعومة فى فلسطين » وعنوانه :

اخرى ولا سيما عن مهمة الوفد ، وهذا السكوت يخفي علينا اسراراً كثيرة متعلقة باغراض الصلات الدبلوماطيقية بين الفرنك والعباسيين ونرانا في مثل هذا الموقف غير قادرين على تفسير اغراض الوفد بابعد من محاولة فتح صلات ودية بين الملك ببين القصير والخليفة المنصور نظراً الى ما يحيط العاهلين من ظروف سياسية ومصالح مشتركة على البيزنطيين والامويين في الاندلس . ولا ريب في ان اتفاق الحوادث السياسية يدعم هذا الموقف في الوقت الذي ارسل ببين رسله الى الشرق كانت الحرب دائرة رحاها بين البيزنطيين والعباسيين[٩] ، وهذا ما يحملنا على ان نرجح تعليل الفكرة الى بدء الصلات الدبلوماطيقية على اساس اشتراك المصالح السياسية . ويرى الاستاذ بكلر (F. W. Buckler) ان العوامل التي شجعت الملك ببين على ايفاد رسله الى المنصور هي سماعه بمحاولة الخليفة مد سلطانه الى اسبانيا ، ولما خاب المنصور في مساعيه حاول ان يتقرب منه لانه كان هو ايضاً يسعى الى مد نفوذه الى اسبانيا . واشتراك الهدف هذا

Einar Joranson, "The Alleged Frankish Protectorate in Palestine", *American Historical Review*, Vol. XXII (Jan 1927), P. 242.

(٩) راجع ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ص ١٠ .

في نظر الاستاذ بكلر هو الذي دفعه الى ايفاد وفده سنة ٧٦٥ (اي بعد سنتين من محاولة المنصور الهجوم على اسبانيا بواسطة العلاء بن مغيث[١٠] . ويسترسل الاستاذ بكلر في هذا الضرب من الاستنتاج فيذهب الى ان السياسة الدبلوماطيقية التي وضع منهاجها الملك بيبين مكنته من التوصل الى بغيته وهي تأليف سلسلة من المحالفات السياسية مع الخليفة المنصور والبابويه . اما البابا فقد اطلق يد الملك بيبين في مقاومة البيزنطيين ، واما الخليفة المنصور فانه ، على رأي الاستاذ بكلر، عين الملك بيبين امير فتح على اسبانيا خلفاً للعلاء بن مغيث[١١] .

بيد اننا اذا دققنا المصادر الفرنجيـة المعاصرة الفينا ان ما ذهب اليه الاستاذ بكلر بعيد الاحتمال ، فالمصادر التي بين ايدينا الآن لا تذكر البتة شيئاً عن تفويض المنصور إلى بيبين ولذلك لا يصح لنا موافقة الاستاذ بكلر ، وكل ما تذكره هذه المصادر هو تبادل الرسل والهدايا وهذا لا يدل على أكثر من تأسيس صـلات ودية بين المنصور وبيبين . أجل قد يكون من المحتمل انه جرت مفاوضات سياسية خطيرة ولكن المصادر لا تشير اليها البتـة فلا يحق لنا ،

---

(١٠) راجع كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر ص ٩ .

(١١) راجع بكلر ص ١٠ .

والحالة هذه ، ان نفترض ان المنصور قـد عين ببين امـير فتح على اسبانيا . وهناك ايضاً محذورات شرعية تحذر تعيين ببين امير فتح على اسبانيا سنأتي على ذكرها فيما بعد(١٢) .

وبعد مضي ثلاث سنوات على هـذه الحملة (سنة ٧٦٨) توفي الملك ببين القصير وتوقفت المراسلات الدبلوماطيقيـة بين العباسيين والفرنك مدة نحو ثلاثين سنـة الى ظهور الامبراطور شارلمان الذي استأنف هـــذه المراسلات حين ارســـل أول بعثاته إلى الخليفة الرشيد سنة ٧٩٧ .

---

(١٢) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب (القسم الخامس) .

الفصل الثاني

الصلات الدبلوماطيقية

بين هرون الرشيد وشارلمان

١ ــ سياسة شارلمان الخارجية

لسياسة شارلمان الخارجية صلة وثيقة باستئناف الصلات الدبلوماطيقية بين البلاطين العباسي والفرنكي . فصلة شارلمان بالبابوية وباسبانيا وتوتر العلاقات بينه وبين القسطنطينية دفعت بالامبراطور إلى انشاء الصلات الودية مرة اخرى بالخليفة العباسي .

اما صلات شارلمان بالبابوية فادت إلى تجديد توتر الصلات بينه وبين القسطنطينية . ذلك ان البابا كان يرمي حينئذ إلى توثيق صلاته ببطارقة القدس وانطاكية والاسكندرية . وتوصلا إلى ذلك شاركهم فى الحركة الرامية إلى مقاومة عبادة الصور والتماثيل المقدسة التى كانت تناصر كنيسة القسطنطينية . وعداء البابوية هذا لامبراطرة القسطنطينية اهاب به إلى مناصرة الفرنك ودعم فكرة سيادتهم في الغرب . وهذا ما دفع البابا إلى تتويج شارلمان في روما

سنة ٨٠٠ ميلادية امبراطوراً للدولة الرومانيـة المقدسة احياء للدولة الرومانية في الغرب حيث وجد من البيت الكرولنجي طموحاً كافياً إلى اعادة مجد الامبراطورية الرومانيةومقاومةالامبراطورة البيزنطيين. إلا ان هــذا العمل اثار سخط البيزنطيين في الشرق لأنهم كانوا يعتبرون انفسهم احق في وراثة مجد الامبراطورية الرومانية من الملوك الكرولنجيين. وهكذا بعث النزاع السياسي مرة أخرى بين الفرنك والبيزنطيين في عهد الامبراطور شارلمان.

اما في اسبانيـا فاهاب النزاع الداخلي بشارلمان إلى التعرض لشؤونها ومحاولة ضمها إلى امبراطوريته. وكان آنئـذ في اسبانيا احزاب ورجال يقاومون عبد الرحمن الداخل واشياعه وأخطر تلك العوامل الأتفاق المثلث الذي عقد بين سليمان بن يقظان العربي والي برشلونة وعبـد الرحمن بن حبيب الفهري زعيم المضريين وابي الأسود بن يوسف الذي سجن عبد الرحمن اباه. وكانت الغاية المتوخاة من هذا الأتفاق المثلث القيام بثورة على سلطان عبد الرحمن الداخـل وذلك بالاعتماد على البربر من الجنوب وعلى شارلمان من الشمال. وذهب بالفعل سليمان بن يقظان وابنه يوسف إلى شارلمان لمفاوضته في مدينة بادربورن (Paderborn) ســنة ٧٧٧

ميلادية[1]. وتم الاتفاق على اعلان الثورة ، فنشر عبد الرحمن بن حبيب الفهري الرايات السود داعياً إلى البيت العباسي . وفي سنة ٧٧٨ هجم شارلمان على اسبانيا واستمر بالفتح حتى مدينـة سركوسا (Saragosa) ولكنه اضطر اخيراً الى الانسحاب نظراً إلى مقاومـة عبد الرحمن من الجنوب والثورات الداخلية التي اثارها السكسون في شمالي مملكته . فخبطت سياسـة الاتفاق المثلث بعد انسحاب شارلمان من جهـة ولعدم التـكاتف المتواصل بين زعماء الثورة من جهة اخرى . وهـكذا تمكن عبد الرحمن من قمع الثورة والقضاء على كل ثائر على حدة [2] .

ويرى الاستاذ بكر ان هذه مغامرة شارلمان الخائبـة كانت

(١) راجع كتاب دوتزى « اسبانيـا الاسلامية » ص ١٦٥ وعنوانه :

R. Dozy, *Spanish Islam : A History of the Moslems in Spain*, trans. by F.G. Stokes (London : Chatto and Windus, 1913) P. 165.

راجع ايضا كتاب انيس زكريا النصولى : « الدولة الاموية فى قرطبة » (بغداد : المكتبة العصرية ، سنة ١٩٢٦) ج ١ ص ٥٣ ــ ٥٤

(٢) راجع هوار : « تاريخ العرب » ج ٢ ص ١٤٧ وعنوانه :

Cl. Huart, *Histoire des Arabes* (Paris . Geuthner, 1913), Vol. II, P. 147.

راجع ايضا النصولى ، المصدر الآنف الذكر ، ج ١ ص ٥٥ .

الباعث بالذات له على استئناف الصلات الدبلوماطيقيـة بالعباسيين . وهو يعتقد ان شارلمان شعر بان الرأي العام الاسلامي في اسبانيا كان راغباً عن تعرض عاهل مسيحي لشؤون اسبانيا رغم الدعوة التي تلقاها من رجال الاتفاق المثلث ، وهذا في نظر الاستاذ بكلر ما دفع شارلمان إلى التفكير باكتساب رضا خليفة المسلمين في بغداد بتولي فتح اسبانيا [٣] .

٢ — تبادل الرسل

بين شارلمان وهرون الرشيد

في أواخر القرن الثامن الميلادي كان ثمـة بضعة عوامل ادت بالذات إلى انشاء المراسلات الدبلوماطيقية بين شارلمان وهرون الرشيد . ففي سنة ٧٩٧ ميلادية كان والي برشلونة اتفق مع شارلمان على تسليمه المدينة ، وقد تكون هذه الحادثة قـد ذكرت شارلمان

(٣) راجع بكلر « هرون الرشيد وشارل الكبير » ص ١٢ — ١٣ وعنوانه :

F. W. Buckler, *Harun'ul-Rashid and Charles the Great* (Cambridge, Mass. , Medieval Academy of America, 1931) PP. 12 - 13.

بخيبة مساعيه سنة ٧٧٨ فرأى ضرورة السير على طريق سالمة للنفوذ إلى اسبانيا وذلك بنيل رضا الخليفة في بغداد[٤]. وكان العداء مستحكماً ايضاً بين القسطنطينية وآخن (عاصمة شارلمان) وكان البيزنطيون ينصبون المكائد لشارلمان في جنوبي اسبانيا ، وربما كانت هذه الحادثة انشأت في رأس شارلمان فكرة التعاون مع هرون الرشيد على مقاومة البيزنطيين . وكان الخليفة في واقع الامر في نزاع مع ايريني امبراطورة البيزنطيين فقهرها الرشيد وارغمها على دفع الجزية . اضف الى ذلك ان بعض حوادث اسبانيا ربما كانت اثارت خواطر الخليفة في بغداد . في هذه الآونة كان تأسس المذهب المالكي في المشرق ، واتهم الامام مالك ابن أنس مؤسس هذا المذهب بمساعدته دعاة العلوية فجلد وسجن ، فقرر مالك الرحيل من بغداد إلى المدينة ولقي هناك علماء قصدوا الحج من قرطبة فاغروه بالمسير معهم الى اسبانيا ففعل[٥] وصرح مالك

(٤) يرى الاستاذ بكلر ان والى برشلونة اقترح عليه سلوك هذه الطريق توسلا للنفوذ فى اسبانيا . راجع كتابه الآنف الذكر ص ٢٠ .

(٥) راجع كتاب ابن خلكان : « وفيات الاعيان » ج ١ ص ٤٣٩ . وكتاب انيس زكريا النصولى : « الدولة الاموية فى قرطبة » ج ١ ص ٦٢ .

في اسبانيا بمدحه لهشام، واقر له بالكفاءة في الحكم بما لا يتفق ومركز الخليفة السياسي فى بغداد[٦].

كل هذه الظروف ساعدت على اشتراك المصالح بين الرشيد وشارلمان وقربت بينهما بصفة كونهما عاهلين لهما سياسة خارجية متفقة. وهذه المصالح هي التي دفعت بشارلمان الى انشاء المراسلات الدبلوماطيقية بين آخن وبغداد.

ففي سنة ٧٩٧ ميلادية اوفد شارلمان وفداً مؤلفاً من ثلاثة رجال، كان اثنان منهم من الفرنك وهما السفيران لانتفريد (Lantfrid) وسيكيموند (Sigimund) وثالث وهو مترجم يهودي اسمه اسحق. ولا تذكر المصادر اللاتينية مهمة هذا الوفد ولا شيئاً واضحاً عنه ما خلا الحصول على فيل[٧]، والواقع ان المترجم اسحق جلب معه فيلا الى بلاط شارلمان. وتذكر المصادر ايضاً ان الوفد مكث في الشرق ثلاث سنوات وان السفيرين لانتفريد وسيكيموند توفيا في الشرق ورجع اخيراً المترجم اسحق مع

(٦) راجع بكلر، الكتاب الآنف الذكر، ص ١٨، ودوتزى الكتاب الآنف الذكر، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٧) راجع كتاب آينهارد « سيرة شارل » لناشره هلفن ص ٤٨ وعنوانه:
Einhard, *Vita Caroli* (ed. Halphen; Paris, 1913), P. 48.

الفيل . اما هل اتصل حقيقة السفيران بالخليفة وهل جرت مفاوضات سياسية فهذه نقاط قد اختلف فيها الباحثون . فالمؤرخ الفرنسي المسيو بريه (Bréhier) يذهب الى ان آينهارد المؤرخ الفرنكي يشير الى كون « مسألة حماية المسيحيين في فلسطين تمّ البحث فيها بالذات بين الخليفة وسفراء شارلمان[٨] » . والاستاذ بكلر يقرر ان المفاوضة حدثت ولكن موضوع البحث ليس واضحاً في المصادر الاصلية[٩]. اما الاستاذ جورنسن فينفي حدوث مثل هذه المفاوضات ، فهو يقول ان آينهارد لم يذكر شيئاً عن ذلك[١٠] ولا يوجد دليل ما يثبت ان شارلمان كان على اتصال بسفرائه بعد مغادرتهم الغرب سنة ٧٩٧ . والمرجح انه كان يجهل الجهل كله ما حدث لهم في الشرق بعد مغادرتهم بلاطه إلى ان وصلته انباؤهم

(٨) راجع مقال المسيو بريبه « اصول العلاقات بين فرنسا وسورية : محمية شارلمان » في مجلة غرفة تجارة مارسيليا للسنة ١٩١٩ ص ٢٨ — ٢٩ ، وعنوانها :

L. Bréhier, "Les Origines des Rapports entre la France et la Syrie : le Protectorat de Charlemagne," *Chambre de Commerce de Marseilles* : *Congrés Français de la Syrie, Séance et Travaux*, fasc. II. Section d'Archeologie etc. , (Marseilles, 1919) , PP. 28 - 29.

(٩) بكلر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٣ وما بعد .

(١٠) راجع مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ، حاشية ص ٢٤٤ .

بواسطة سفيرين من المسلمين سنة ٨٠١ . وهـذان السفيران احدهما فارسي وهو رسول من الخليفة هرون والآخر من افريقيا يمثل ابراهيم بن الاغلب امير القيروان . وقد أوفد شارلمان من يستقبل هذا الوفد ولما مثل بين يديه اخبره بان اسحق عائد في طريقه وقد جلب معه فيلاً وهدايا اخرى ، اما السفيران فقد توفيا . ووصل اسحق الى ايطاليا في تشرين الاول سنة ٨٠١ ولم يحظ بالمثول امام شارلمان الى تموز سنة ٨٠٢ اذ قدم الى الامبراطور الفيل ، وكان اسمه ابا العباس ، وهدايا اخرى(١١) .

---

(١١) تذكر الاخبار الملكية قصة الفيل ووصوله الى شارلمان وتذكر ايضا بقاءه فى بلاطه حتى توفى سنة ٨١٠ . ويذكر آينهارد ان الخليفة ارسل فيله الاوحد هدية الى شارلمان . اما بارتولد فيذهب الى ان اسحق جلب الفيل من الهند بموافقة الخليفة ، لان تجارة الفيلة (على قول فازيلييف) كانت محتكرة من قبل الخليفة . وهـذه الاراء تحتاج الى اثبات . والمعول عليه من الآراء ان الفيل كان هدية من الخليفة وقد يكون أتى به من الهند . اما قول البعض ان شارلمان أتى به من شمالى افريقيا فهو بعيد الاحتمال لان المسعودى يروى فى مروجه ان الفيلة اختفت من شمالى افريقيا فى القرن السابع الميلادى . راجع تفاصيل اخرى حول الفيل فى الملحق الثالث من كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر فى الصفحات ٥١ ــ ٥٢ . ويجدر بالذكر هنا ان الاستاذ محمدعبدالله عنان قرأ اسم الفيل « بولاباس » خطأ فى المصادر الاجنبية

وهنا يتبادر إلى الذهن بضعة أسئلة عن مهمة وفد الرشيد إلى شارلمان :

(اولا) هل ذهب هذا الوفد الى شارلمان لرد زيارة وفد شارلمان اليه فقط ؟

(ثانياً) هل فاوض هذا الوفد شارلمان لتأليف حلف سياسي او لمنح شارلمان حقوقاً في فلسطين او اسبانيا ؟

وقد يكون من الطرافة بمكان ان نشير اولاً الى الرحلة التي صوّرتها مخيلة الاستاذ جميل نخلة المدوّر في كتابه « حضارة الاسلام في دار السلام » اذ يعالج فيها رحلة رسول الخليفة هرون الرشيد الى شارلمان ومهمته السياسية[١٢]. وقصة الاستاذ المدوّر تذكر ان الخليفة هرون الرشيد استدعى رسولا وقال له : « إنا اتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام فرأينا ان نوجهك اليه بالطاف تروم اليه أن يتقبلها في سبيل المودة لغاية نرغب فيها اليه من التعصب على

والصحيح هو « ابو العباس » . راجع كتاب الاستاذ محمدعبدالله عنان « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » (القاهرة : مطبعة الجديد ، سنة ١٩٢٩) ، حاشية ص ٣٤ .

(١٢) راجع جميل نخلة المدور : « حضارة الاسلام فى دار السلام » (القاهرة : مطبعة المقتطف ، سنة ١٨٨٨) ص ٢٦٦ وما بعد.

بني امية الذين يمزقون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب . فاذا وافقنا على مانروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من انفاذك اليه واجهد بان تسترق لبه بخلابة لسانك وتقدم اليه بالوعد الجميل في اننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف اليه نفقة الحرب من بيت مالنا ونجري الارزاق الواسعة على جنـــده ونقاسمه ما تحوي خزائن الظالمين من المال والجوهر ...(١٣) »

فالاستاذ المدوّر يصوّر الغرض من الرحلة الاتفاق مع شارلمان على غزو اسبانيا والقضاء على سلطة الامويين ثم مقاسمته ما تحوي البلاد من ثروة(١٤) . ويسترسل الاستاذ المدور في القصة فيذكر ان الرسول توجه الى الشام ثم بيروت ومنها ركب البحر الى ان نزل

---

(١٣) جميل نخلة المدور ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(١٤) ويذكر الاستاذ المدور ان جعفر البرمكي كان على غير رأي الخليفة في مقاومة الامويين في الاندلس ، وان جعفر اخبر الرسول بانه اشار على الخليفة « ان يقلع عن مناجزة الامويين اذ لنا في المشرق ما يشغلنا عن قتالهم ... فما لنا والامويين وقد كفانا الله شرهم فان يكونوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحرب الى ما وراء البحور وليس لنا ان نلقى برجالنا في المواضع المجحفة ... » . المدور ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ . ولا ريب ان رواية المدور هذه لا يدعمها رواية عربية او فرنجية .

مدينة مرشيلية (مارسيليا) فاخبره اميرها ان الانبرذور (الامبراطور) كان في روما فتوجه الرسول اليه هناك(١٥). وفي روما استقبله الامبراطور وسأله عن المشرق « وانه يروم ان يكون الدهر في صفاء للرشيد(١٦)» . ويقول الرسول انه اجابه بتحفظ عن امر امية وسأله ان يأذن له في الدخول عليه « في خلوة وانفراد فاجابني الى ذلك وهو يظهر ائتناسه بي وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التواد(١٧) » ثم يضيف : « ولما كان الغد استدعاني القيصر ... فلما امر لي بالجلوس بلغته ما اوصاني به الرشيد من امر امية وما يروم من موافقته عليهم ولكن بالمجاز ... فخاطبني بما في معناه(١٨)» . فالاستاذ المدور يذكر بشيء من الغموض ان اتفاقاً تمّ بين الرشيد وشارلمان على فتح اسبانيا وتفويض شارلمان بتنفيذ هذه المهمة . ويوافق الاستاذ بكلر الاستاذ المدور فى رأيه هذا فيما يتعلق باسبانيا(١٩)، ويقرر ان الرشيد عين شارلمان امير فتح على اسبانيا

---

(١٥) المدور ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٩٨ .

(١٦) المدور ، ص ٣٠٠ .

(١٧) المدور ، ص ٣٠٠ .

(١٨) المدور ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(١٩) راجع بكلر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٥ .

لانجاز هذه المهمة[٢٠]. ويسترسل الاستاذ بكلر في شرح رأيه ويدعمه بقوله ان توارد الحوادث يثبت حصول هذا الاتفاق على اسبانيا ، لأن مساعي شارلمان في التعرض لشؤون اسبانيا لقيت نجاحا بعد مفاوضات رسل شارلمان ، وهو يعلل ذلك بقوله ان المسلمين في اسبانيا وافريقيا اعتبروا شارلمان حليف الخليفة فناصروه . ويرى بكلر ان هـذا الاتفاق ايضاً هو الذي سهل على شارلمان الاستيلاء على برشلونه سنة ٨٠٢ بعد حصار سنتين رغم محاولات قرطبة الاحتفاظ بها ، وتمكن شارلمان من الاستيلاء على بقاع اخرى في شمالي اسبانيا واذعن له قسم من العرب[٢١]. ويذكر الاستاذ بكلر ايضاً ان التفويض الذي حصل عليه شارلمان أشير اليه في مراسلات بين البابا وشارلمان[٢٢].

ويضيف الاستاذ بكلر الى هذا الغرض من المفاوضات بين الرشيد وشارلمان غرضين آخرين وهما الاتفاق على البيزنطيين وتسهيل طريق الحج للافرنج الى الاراضي المقدسة . وسنتناول نقد هذين الغرضين حين البحث في نظرية الاستاذ بكلر[٢٣].

(٢٠) بكلر ، ص ٢٣ ـ ٢٥ .
(٢١) بكلر ، ص ٢٣ .
(٢٢) بكلر ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .
(٢٣) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب ، القسم الثالث .

٣ — تبادل الرسل بين شارلمان وبطريق القدس

فى الوقت الذي اوفد فيه شارلمان وفداً الى بلاط هرون الرشيد تبودلت مراسلات ايضاً بينه وبين بطريق القدس . ويجب ان نؤكد ان الذي فتح هذه المراسلات هو البطريق . ففي اواخر سنة ٧٩٩ ميلادية وصل الى آخن (اكس لاشابل) رسول من البطريق يحمل الى شارلمان تهاني وهدايا رمزية . وبعد ان اقام الرسول برهة قصيرة عاد يحمل هدايا من الامبراطور الىالبطريق وقد صحبه كاهن من بلاط شارلمان اسمه زكريا بمنزلة رسول رسمي من الامبراطور الى البطريق . ولا تذكر المصادر الاصلية شيئاً من غرض هذه المراسلات .

وفي ٢٣ كانون الاول سنة ٨٠٠ عاد زكريا الى روما حيث كان يقيم شارلمان حينئذ يصحبه راهبان . وجلب معه هدايا رمزية كمفاتيح كنيسة القيامة وراية . ولا تذكر المصادر المعاصرة معنى هذه الهدايا ولاسيما المفاتيح والراية . إلا ان بعض الكتاب يذهبون الى ان البطريق قدمها الى الامبراطور رمزاً الى طلب حمايته . وهذه

هي نظرية المسيو بربيه وكلينكلوز على ما سنذكره . ويستند هؤلاء الكتاب في تفسيرهم الى عمل مشابه لهذا قام به كل من البابا غريغوريوس الثالث وليو الثالث في ظروف سابقة . إلا ان الاستاذ رنسيمان Runciman يحمل تقديم هدايا البطريق على غير هذا المحمل فهو يذهب الى ان البطارقة كانوا يمنحون مثل هذه الهدايا تقديراً لبعض الناس البارزين دون ان ينطوي ذلك على معنى سياسي (٢٤) .

ولنتساءل الآن هل كان لبعثة البطريق صلة بوفد الخليفة هرون الرشيد الى شارلمان ؟

يعتقد المسيو بربيه أن وفد شارلمان الاول (وفد سنة ٧٩٧) مر بالقدس فى طريقه الى بغداد ، إلا ان المصادر الاصلية لا تذكر شيئاً بشأن ذلك . أما آينهارد فيقرر ان الوفود الاخرى مرت بالقدس ولكنه لا يقول ذلك بشأن وفد سنة ٧٩٧ . أما اذا نظرنا الى المسألة نظر المسيو بربيه ، اي ان تقديم مفاتيح كنيسة القيامة كان رمزاً

(٢٤) راجع مقال الاستاذ رنسيمان : « شارلمان وفلسطين » فى مجلة التاريخ الانكليزية المجلد ٥٠ ص ٦١٠ ، وعنوانها بالانكليزية كما يلي :

Steven Runciman, "Charlemagne and Palestine", *English Historical Review*, Vol. L (Oct. 1935), P. 610.

الى طلب الحماية ، فان البطريق يجب ان يكون قد اتصل اولا بالخليفة للحصول على موافقته على القضية . إلا أن المصادر لا تمكنا من هذا الاستنتاج وان مجرد تقديم الهدايا لا يعني هذا الغرض . فمن الصعب إذن ان نعتبر بعثة البطريق الى شارلمان ذات صلة بوفد الخليفة اليه . ومن المحتمل كثيراً ان يكون البطريق سمع بالصلات الودية بين الخليفة والامبراطور ولكن ذلك لا يعني بالطبع ان البطريق ارسل وفده بناء على اتفاق سابق مع الخليفة .

٤ — وفود شارلمان الاخرى الى الرشيد

في السنة التي اوصل فيها اسحق الفيل ابا العباس الى بلاط شارلمان (سنة ٨٠٢) ارسل الامبراطور وفداً ثانياً الى بلاط الخليفة هرون الرشيد . وكان اسم احد السفراء رادبرت (Radbert) . ولا تشير المصادر الاصلية سوى اشارة بسيطة الى هذا الوفد . فلا نكاد نعثر في «الاخبار الملكية» على اكثر من ذكر هذا الوفد . أما آينهارد فيقرر ان الوفد مر في طريقه بالاراضي المقدسة ثم سار الى بلاط الخليفة في بغداد ، وان السفراء « عرضوا عليه (على الرشيد) رغبات

سيدهم ، وانه فضلاً عن موافقته على ذلك سمح ايضاً ببسط سيطرته (سيطرة شرلمان) على الاماكن المقدسة » [٢٥] .

ويلاحظ على هذه العبارة أنها شديدة الغموض فهي لا تبين ماذا كان ذلك الغرض ، وانما تشير الى ان الرشيد منح ما طلبه شارلمان على لسان سفرائه . هذا وان تاريخية العبارة تتوقف ايضاً على مدى دقة اينهارد في روايته . وقد بين المسيو هلفن (Halphen) بأن آينهارد مع انه كان في موقف يساعده على معرفة المراسلات الدبلوماطيقية هذه إلا أنه كتب هذه الحوادث متأخرة عن زمنها كما انه يوجد في كتابه اخطاء كثيرة في سيرة شارلمان [٢٦] . وبناء على ذلك من الصعب التعويل على صحة هذه العبارة [٢٧] .

---

(٢٥) راجع كتاب آينهارد : « حياة شارل » ، ص ٤٦ — ٤٨ وعنوانه :

Einhard, *Vita Caroli* (ed. by Halphen) pp. 46 - 48.

(٢٦) راجع كتاب هلفن : « دراسات انتقادية لتاريخ شالمارن » ص ٨١ وعنوانه :

L. Halphen, *Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne* (Paris : Félix Alcan, 1921), p. 81.

(٢٧) يحاول الاستاذ رنسيمان تفسير الغرض بانه ربما كان طلب وضع كنيسة القديسة مريم قيد تصرف الرهبان اللاتين اذ تم ذلك بالفعل فيما بعد . راجع مقال رنسيمان الآنف الذكر ص ٦١٢ — ٦١٣ .

وصلت البعثة الى اوروبا سنة ٨٠٦ (اي بعد مضي اربع سنوات) في زمن كان الاسطول البيزنطي اعلن الحصار البحري على ساحل الادرياتيك الشمالي إلا ان السفراء تمكنوا من المرور رغم الحصار . وتوفي رادبرت بعد سنة من وصول البعثة الى اوروبا .

وفي الزمن الذي كان سفراء سنة ٨٠٢ في الشرق اوفد البطريق جرجس راهبين الى شارلمان فوصلا اليه سنة ٨٠٣ وكان حينئذ في مدينة سالتز (Salz) الواقعة على نهر ساله (Saale) واقام الرسل عند شارلمان الى تشرين الاول سنة ٨٠٣ بدليل انهما ذهبا معه الى مدينة سالتزبرغ (Salzburg) في بافاريا . ولا تخبرنا المصادر شيئاً اكثر من هذا عن الوفد .

وفي اوائل سنة ٨٠٧ وصل الى بلاط شارلمان ثلاثة سفراء يسمى احدهم عبد الله ، وكان رسول الخليفة ، وراهبان من بطريق القدس توما اسماهما جورج وفيلكس (Felix)[٢٨] . وربما كان الوفدان اما سافرا معاً واما انهما وصلا الى آخن في وقت واحد . اما آينهارد فيذكر ان الخليفة مهد الطريق لكي يتصل الوفدان احدهما

---

(٢٨) الراهب جورج اصله الماني واسمه الكامل (Abbot George) وكان اسمه الاول اكيلبالد (Egilbald) . راجع حاشية مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ص ٢٥٣ .

بالآخر حين الوصول الى بلاط شارلمان . إلا انه ما من دليل يثبت ان الخليفة قد فعل ذلك (٢٩) . وقد حمل رسول الخليفة الى شارلمان هدايا ثمينة منها صيوان ملوّن بالوان متنوعة جميلة ومنسوجات من الحرير والكتان وروائح عطرية وبلسم وساعة مائية واواني نحاسية كبيرة (٣٠) . وقد اقام السفراء الثلاثة عند الامبراطور مدة ثم ارسلوا

---

(٢٩) يذهب الاستاذ رنسيمان الى ان التقاء الوفدين فى بلاط شارلمان كان على سبيل الاتفاق ولم يكن مقصودا . راجع رأيه فى مقاله الآنف الذكر ص ٦١٣ . راجع ايضا مقال الاستاذ جورنسن ص ٢٥٣ .

(٣٠) يذكر الاستاذ بكلر ان دليلا واحدا لا يزال موجودا على صحة ارسال هذه الهدايا ولكن الاستاذ بكلر لا يعتبر ذلك دليلا جازما . وهذا الدليل هو وجود قطعة من هدايا الرشيد ، او المعدودة من هدايا الرشيد ، فى مكتبة عميد كاتدرائية درم (Durham) . وقصة وجودها فى هذه المكتبة طريفة وهى انه بعد اضمحلال امبراطورية شارلمان سنة ٨٨٨ ميلادية بقيت هدايا الرشيد عند دوقات فرنسا ، فلما خطب الدوق هيو (Hugh) اخت الملك اثلستن (Aethlestan) واسمها اتلدا (Aethelda) ، ارسل بعض هذه الهدايا الى ذلك الملك الانكليزى . وبعد اثنتى عشرة سنة من هذا التاريخ اهدى الملك قسما من هذه الهدايا الى دير القديس كثبرت (Cuthbert) . ثم تخرب هذا الدير فى السنة ١١٠٤ فأخذ الرهبان بعض آثاره النفيسة واحتفظوا بها ومنها هذه الهدية . الا انه اتلف بعضها سنة **١٨٢٧**

الى ايطاليا حيث ابحروا من هنالك الى المشرق .

———:o:———

ولم يبق منها سوى قطعة صغيرة مكتوب عليها العبارة : « لا اله الا الله » وهى المحفوظة الآن فى كاتدرائية درم . راجع تفصيل هذه القصة فى كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكـــر ، حاشية ص ٤٤ ، والملحق الرابع لهذا الكتاب ذاته ص ٥٣ ـ ٥٦ . راجع ايضا مقال الاستاذ جورنسن الآنف الذكر ص ٢٥٣ .

الفصل الثالث

نظريات في تعليل طبيعة الصلات الدبلوماطيقية بين العباسيين والفرنك

لقد عكف بعض الكتاب الغربيين على درس طبيعة الصلات الدبلوماطيقية بين هرون الرشيد وشارلمان وذهبوا مذاهب مختلفة في تعليل المركز القانوني الذي اسفرت عنه المفاوضات المزعومة بين العاهلين . وسنتناول فيما يلي تلخيص أكثر هذه النظريات خطورة وما أثارته من مساجلة بين الكتاب مع كلمة عامة في نقدها وتقديرها .

١ — نظرية المسيو بريبه

تدور نظرية المسيو لويس بريبه حول وضع الاراضي المقدسة بما يسمى « تحت الحماية » ، فهو يقرر ان المراسلات بين الرشيد وشارلمان اسفرت عن اعتراف الرشيد بحق حمايته للاراضي المقدسة . وهو يستنتج ذلك من رواية آينهارد التي اتينا على ذكرها والتي تنص على ان ما طلبه رسل شارلمان (دون ان تذكر المصادر نوع

الطلب) كان فى نظر المسيو بربيه حماية الاراضي المقدسة وقد وافق على ذلك الرشيد . كما ان ارسال البطريق مفاتيح كنيسة القيامة (وحدوث ذلك فى نظر المسيو بربيه بعد موافقة الخليفة) معناه تقديم الطاعة الى حامي الاراضي المقدسة (١) .

ويستند المسيو بربيه ايضاً في وضع نظريته الى اعمال قام بها شارلمان بصفة كونه حامي الاراضي المقدسة وهي :

(اولا) ان شارلمان بدأ بارسال اعانات ومساعدات مالية إلى الاراضي المقدسة ولا سيما عضد القيام بانشاء كنائس ودار للضيافة ومكتبة .

(ثانياً) ان شارلمان فصل في مساجلة دينية نشأت بين الرهبان في القدس ، فاحيلت المساجلة عليه بصفة كونه حامي الاراضي المقدسة .

---

(١) راجع تفصيل هذه النظرية فى مقال المسيو بربيه : « اصول العلاقات بين فرنسا وسورية : محمية شارلمان » فى مجلة غرفة تجارة مارسيليا ، وعنوانها :

Louis Bréhier, "Les Origines des Rapports entre la France et la Syrie : le Protectorat de Charlemagne", *Chambre de Commerce de Marseilles : Congrès Français de la Syrie, Séances et Travaux*, Fasc. II. (Marseilles, 1919), pp. 28 ff.

ويرى المسيو برييه ان هذه ادلة قاطعة على اثبات اعتراف الرشيد بحماية شارلمان للاراضي المقدسة (٢) . وهو يذهب الى ان هذه الحماية بقيت للملوك الفرنك مدة قرنين بعد موت الامبراطور شارلمان .

٣ — نقد الاستاذ جورنسن لنظرية المسيو برييه

وقد انبرى الدكتور آينار جورنسن، الاستاذ بجامعة شيكاغو، لنقد هذه النظرية . فهو يقول ان المصادر الأولى لا تذكر غرض الوفد الأول (وفد سنة ٧٩٧) ولا ما جرى من المفاوضات في بغداد حتى انها لا تذكر شيئاً عن رجوعه (٣) .

اما دليل ارسال المفاتيح والراية إلى شارلمان فالأستاذ

---

(٢) راجع اراء كلينكلوز المماثلة لهذه النظرية ويمكن تصنيفها مع نظريات الفريق المؤيد لنظرية الحماية فى مقاله : « اسطورة محمية شارلمان فى الاراضى المقدسة » وعنوانها :

A. Kleinclausz, "La Légende du Protectorat de Charlemagne sur la Terre Sainte", *Syria,* Vol. VII. (1926), PP. 211 - 233.

(٣) راجع مقال الاستاذ جورنسن : « المحمية الفرنكية المزعومة فى فلسطين » وعنوانها :

Einar Joranson, "The Alleged Frankish Protectorate in Palestine", *American Historical Review,* Vol XXXII. (Jan. 1927), P. 244.

جورنسن لا يراه دليلا مقنعاً . لأن المسيو بريبه يستند في تفسيره إلى حادثين شبيهين بذلك حدثا من قبل البابوين غريغوريوس الثالث وليو الثالث في عهد سابق لعهد بطريق القدس (٤) . اما الاستاذ جورنسن فيرى ان مقابلة اعمال متشابهة في الحوادث التاريخية لا يصح اعتبارها دليلا ، لأن المقابلة كثيراً ما تؤدي الى تشويه وجه الحقائق لا إلى التفسير ، فالتشابه الظاهر بين حادث وآخر قد يجعلنا نؤكد وجوه التشابه أكثر مما نؤكد وجوه الاختلاف وبذلك نزيد في غموض ما نريد ايضاحه . كما ان بين الحادثين فارقاً كبيراً في الظروف وفي الزمن فلا تصح المقابلة(٥) .

ثم يفند الأستاذ جورنسن ادلة المسيو بريبه الأخرى وهي

---

(٤) كان كل من غريغوريوس الثالث وليو الثالث قدم مفاتيح الى شارل مارتل وبين القصير طالبا الحماية . والظروف السياسية هى التى دفعتهما الى ذلك ولاسيما فيما يتعلق بالاختلافات مع الدولة البيزنطية فى الشرق .

(٥) راجع جورنسن ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٢٧ — ٢٤٨ . والواقع ان المسيو بريبه لا يقول ان تقديم المفاتيح والراية كان بحد ذاته عملا مؤديا الى الحماية بل كان فاتحة للمفاوضات التى تمت بمراسلات اخرى ولا سيما فيما يتعلق بوفد شارلمان لسنة ٨٠٢ (راجع مقال بريبه الآنف الذكر ص ٢٨) ، وهو يستند الى رواية آينهارد . اما الاستاذ جورنسن فلا يرى فى آينهارد ما يسوغ هذا الاستنتاج (راجع مقال الاستاذ جورنسن ، حاشية ص ٢٥٠) .

المساعدات المالية وانشاء المعاهد الدينية (كالكنائس ودار الضيافة والمكتبة) في القدس . والاستاذ جورنسن لا ينكر ارسال الاعانات ، فهو يتفق وآينهارد على ان شارلمان كان يبعث بها وذلك ليس إلى فلسطين فحسب بل إلى الاسكندرية وقرطاجة ايضاً . ولكنه لا يتفق مع المسيو بربيه على تشييد كنائس جديدة ، لأنه يرى ان المصادر الاولى لا تذكر غير ترميم بعض كنائس قديمة وهذا لا يعني ان الامبراطور قام بحركة انشاء معاهد دينية . وتنحصر جملة ما يراه الاستاذ جورنسن فيما يلي :

(اولا) أن شارلمان ارسل اعانات مالية وقد يكون انفق بعضها على ترميم بعض الكنائس القديمة .

(ثانياً) من المحتمل انه انفق على بناء دار للضيافة أصبحت تعرف بأسمه فيما بعد .

(ثالثاً) من المحتمل انه انشأ مكتبة ذكرها فيما بعد راهب زار الأراضي المقدسة .

بيد ان كل هذا لا يعني وضع الأراضي المقدسة قيد « حماية » الأمبراطور شارلمان(٦) . أجل قد يؤدي ذلك إلى انشاء صلات

---

(٦) جورنسن ، ص ٢٥٥ .

ودية مع الخليفة هرون الرشيد ولكننا نجد فرقاً كبيراً بين الحماية Protection وبين الصلات الودية بين عاهلين (٧) . والواقع ان آينهارد يشير إلى ان شارلمان كان يسعى للحصول على صداقة الملوك فيما وراء البحار ولكن ذلك لا يعني بسط حمايته على ممتلكات أولئك الملوك (٨) .

---

(٧) يجب ان نلاحظ ان المسيو بريبه فى استعماله التعبير « حماية » يطبق تعبيرا فى القانون الدولى الحديث على وضع يتعلق بامور القرون الوسطى . فالحماية تعنى الآن ان دولة تمارس كل مظاهر السيادة الخارجية الهامة لدولة اخرى بينما الادارة الداخلية تترك للدولة المحمية لممارستها . وهذا بالطبع غير ما يقصده المسيو بريبه من تعبيره . اذ حماية شارلمان فى نظر المسيو بريبه شملت الادارة الداخلية فيما يخص القيام ببناء بعض المعاهد الدينية او فصل بعض الامور الداخلية الاخرى. ولذا فالمسيو بريبه يستعمل تعبيرا فى القانون الدولى الحديث على غير معناه الصحيح فى وضع سابق لتطبيق نفس هذا التعبير . راجع عن تعريف وشرح معنى الحماية كتاب لورنس : « مبادىء القانون الدولى » وعنوانه :

T. J. Lawrence, *Principles of International Law,* ed. P. H. Winfield (Boston : D. C. Heath & Co. , 7ed. , 1923), P. 56.

L. Oppenheim, *International Law,* ed. by H. Lauterpacht (London : Longmans, Green and Co. , 5th. ed. , 1937) , Vol. I, pp. 168 - 173.

(٨) راجع جورنسن ، المصدر الآنف الذكر ، حاشية ص ٢٥٥ .

واخير يفند الأستاذ جورنسن قضية الفصل في المساجلة الدينية فهو اولا يقرر ان هذه المساجلة احيلت على البابا ليو الثالث لا على شارلمان ، وانما الاشارة الى شارلمان جاءت عرضاً بمنزلة تأييد لوجهة نظر راهب لا لعرض المسألة عليه . وبناء على ذلك لا يصح اتخاذ هذا الحادث دليلا على اعتبار شارلمان مرجعاً شرعياً أعلى لحل مشاكل ونزعات تنشأ في الأراضي المقدسة بين المسيحيين (٩) .

٣ — نظرية الاستاذ بكلر

أما الأستاذ بكلر (F. W. Buckler) فيبني نظريته في الدرجة الأولى على المفاوضات التي قام بها وفد شارلمان الأول (وفد سنة ٧٩٧) ويعتبر على مايظهر أن باقي الوفود اكمل المفاوضات توثيقاً للصلات التي تم الاتفاق عليها .

ويعترف الأستاذ بكلر باننا لا نعرف الوصايا التى زود بها شارلمان وفده . ولكنه يحاول أن يستنتجها من مجرى الحوادث التي حدثت عقب ذهاب الوفد ومن سير المفاوضات الأخرى التي بعث بها شارلمان الى الشرق . فهو يفترض أن هذه المفاوضات كانت

(٩) راجع جورنسن ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

تدور حول المحتملات التالية :

(اولا) تحديد موقف شارلمان بصفة كونه حامياً للمصالح العباسية في عالم البحر المتوسط الغربي .

(ثانياً) عقد تحالف بين الخليفة هرون الرشيد والامبراطور شارلمان فيما يتعلق بمصالحهما المشتركة فيؤلف شارلمان جبهة على اسبانيا ويؤلف الرشيد جبهة على بيزنطية .

(ثالثاً) تمهيد طريق الحج وحماية الحجاج الفرنك في الأراضي المقدسة من تدخل البيزنطيين .

أما فيما يتعلق باسبانيا فالاستاذ بكلر يقول بان مجرد ارسال وفد سنة ٧٩٧ اسفرت مفاوضاته عن تغير موقف بعض أمراء المسلمين المعادي تجاه شارلمان ونجم عن ذلك تسليمه مدناً وولايات للحصول على حمايته . وهذا التغير في موقف اولئك الأمراء حمل الأستاذ بكلر على الاعتقاد ان مفاوضات وفد سنة ٧٩٧ شملت البحث في اسبانيا وانه من المحتمل جداً أن الخليفة اطلق يد شارلمان في امور اسبانيا وجعله وكيله في الدفاع عن المصالح العباسية هناك (١٠) .

ففي هذا الدور كان الفونسو ، أحد الأمراء التابعين لشارلمان ،

(١٠) راجع بكلر ، المصدر الآنف الذكر ص ٢٣ .

تمكن من الزحف جنوباً إلى مدينة لشبونة بمساعدة فريق من الأمراء العرب الموالين للعباسيين . وان حسناً والي هويسكا (Huesca) أرسل مفاتيح هذه المدينة الى شارلمان واعداً اياه تسليمه المدينة اذا ما ساعدته الظروف على ذلك . وسقطت بالفعل برشلونة في ايدي شارلمان سنة ٨٠٢ بعد حصار سنتين رغم محاولات قرطبة لرفع الحصار عنها . وعبثاً حاول العرب والبربر الموالون للامويين استرداد هذه المدن . ويستدل الأستاذ بكلر أيضاً على ذلك من ذكر هذا الخبر في رسالة بين ليو الثالث وشارلمان فحواها أن شارلمان لم يأخذ على عاتقه حماية المسلمين في اسبانيا بل كان تعاهد على مساعدتهم فقط (١١).

الغرض الثاني من المفاوضات في رأي الأستاذ بكلر هو عقد تحالف سياسي بين هرون الرشيد وشارلمان . ويرجع سبب ذلك الى العداء المتواصل بين القسطنطينية و بغداد منذ عهد الخليفة المنصور . والأستاذ بكلر لا يعتقد ان قضية الصلح بين الخليفة هرون الرشيد والملكة إريني كان نتيجة لازمة لسعي وفد شارلمان لدى الرشيد ولكنه يرى انها ربما اثيرت في اثناء ذهاب الوفد البيزنطي الى

(١١) بكلر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٤ .

بلاط شارلمان . إلا أنه من المحتمل جداً ان هذه القضية كانت اهملت نتيجة ما تلا عهد الصلح لما نقض نقفور الاول (Nicephorus) المعاهدة المعقودة مع الرشيد بارساله كتاباً شديد اللهجة في كانون الأول سنة ٨٠٢ ورفضه دفع الجزية [١٢] . ويرى الأستاذ بكلر هذا النقض سبباً في عدم البحث في قضية الصلح مع البيزنطيين وان البحث دار حول التحالف على البيزنطيين [١٣] .

---

(١٢) كانت الملكة ارينى عقدت صلحا مع الرشيد (سنة ١٨٦ هجرية) على ان تدفع جزية سنوية ، فلما اعتلى العرش نقفور كتب الى الرشيد كتابا شديد اللهجة نقض فيه المعاهدة . وهذا نص الكتاب : « من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب . اما بعد فان الملكة التى كانت قبلى اقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقا بحمل امثاله اليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من اموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا وبينك » . فاجابه الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ان تسمعه والسلام » . وهكذا بدأت الحرب بين العاهلين . راجع عن الحرب محمد الخضرى : « مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر ، سنة ١٩٢١ ، ص ١٤٥ وما بعد . وكتاب السر وليم ميور « الخلافة » (*The Caliphate*) طبعة ادنبره سنة ١٩٢٤ ، ص ٤٧٨ وما بعد .

(١٣) راجع بكلر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٦ — ٢٧ .

الغرض الثالث من المفاوضات تسهيل الحج للفرنك في الاراضي المقدسة . والاستاذ بكلر لا يرمي بهذا الى كون معاملة المسلمين للحجاج كانت سيئة لكي تستوجب تدخل شارلمان في الأمر سواء اكان ذلك في القدس أم في انطاكية ام الاسكندرية (١٤) . لكن ذلك الموقف في نظر الأستاذ بكلر تغير بعد نقض نقفور الاول معاهدة الصلح . واتجهت سياسة الرشيد نحو الفرنك وأصبحت سياسته عدائية للبيزنطيين وسعى لاضعاف نفوذهم في الاراضي المقدسة . وكانت الصلات بين مسيحيي الشرق والبيزنطيين توترت بنتيجة الاختلاف على عبادة الصور ايضاً وشارك مسيحيو الشرق رأي الكنيسة الغربية في ذلك . ووجد البلاط العباسي هذا الاختلاف في صالح الخلافة العباسية اذ كان النزاع قائما بينهم وبين القسطنطينية . ويرى الاستاذ بكلر دليلا على ذلك مساعدة البلاط العباسي على نصب بطريق من حزب مسيحيي الشرق المعادي للبيزنطيين على كرسي بطرقية الاسكندرية (١٥) . وأمام هذا الموقف السياسي الديني يجد الأستاذ بكلر نفسه صادقاً اذا قال بان هرون الرشيد وافق على منح

---

(١٤) بكلر ص ٢٧ .

(١٥) راجع بكلر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٨ .

شارلمان حق حماية مسيحي الاراضي المقدسة تخلصاً من نفوذ البيزنطيين (١٦) .

وأخيراً يرى الاستاذ بكلر أن شيئاً شبيهاً بتعاقد رسمي تم بين الخليفة والامبراطور بشأن هذه الحماية . وما وفد البطريق الذي ذهب الى شارلمان سنة ٧٩٧ والذي حمل مفاتيح كنيسة القيامة والراية إلا نتيجة لما تم من الاتفاق بين الخليفة والامبراطور اعترافاً بطاعة البطريق لصاحب الحماية (١٧) .

٤ — مركز شارلمان الشرعي
بمقتضى نظرية الاستاذ بكلر

ثم يتقدم الاستاذ بكلر لتحديد الوضع القانوني الذي اتخذه شارلمان بنتيجة التعاقد الذي تم بينه وبين الخليفة من الوجهة الشرعية . وهو يبدي بضع نقاط اساسية توصلا الى ذلك الوضع وهي :

(اولا) ان حق الحماية على الاراضي المقدسة حصل بنتيجة منحة الرشيد لشارلمان . وبناء على ذلك فان الصلات القانونية يجب أن

---

(١٦) بكلر ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(١٧) بكلر ص ٢٩ — ٣٠ .

تتعين من وجهة نظر المانح (أي بموجب الشرع الاسلامي) وليس بموجب القوانين الفرنكية (١٨).

(ثانياً) ان التعاقد بين العاهلين لم يكن حلفاً سياسياً اعتيادياً بل كان تحالفاً لتحديد صلات اوثق من ذلك وأدق منه . فان منح حق الحماية على الاراضي المقدسة ربط شارلمان بروابط « الحامي » ويترتب على ذلك تبعات تربطه بالخليفة ربط التابع بالمتبوع .

(ثالثاً) ينجم عن ذلك ايضاً ان منزلة شارلمان الشرعية — مع كونه امبراطوراً في الغرب — باتت دون منزلة الخليفة هرون الرشيد ، ذلك انه بقبوله الحماية اصبح مرتبطاً ارتباط تابع يستمد سلطته على الاراضى المقدسة من الخليفة صاحب السلطة العليا في دار الاسلام . أما شارلمان فهو متسلم المنحة (حق حماية الاراضي المقدسة) ضمن دار الاسلام وخاضع لاحكام الشرع الاسلامي(١٩). ويستند الاستاذ بكار لدعم رأيه هذا الى الوجه الذي نال به شارلمان تلك المنحة فالخليفة هرون الرشيد أنعم على تابعه بخاعة — وهذا ما جرى عليه خلفاء بني العباس في الانعام على وزرائهم وتابعيهم — والخاعة

(١٨) راجع كتاب الاستاذ بكلر الآنف الذكر ، المقدمة .

(١٩) بكلر ص ٣٢ .

هي انعام من كبير على انسان دونه مرتبة . وان قبول شارلمان — في رأي الاستاذ بكار — لخلعة الرشيد دليل على تابعيته له(٢٠).

ويستشهد الاستاذ بكار بفقيه مسلم على امكان اسناد مثل هـذا المنصب الى شارلمان . فهو يرى ان في « كتاب الاحكام السلطانية » للقاضي ابي الحسن علي الماوردي منصب « امارة الفتح » لتوكيل الغزو في خارج دار الاسلام الى امير وان هذه الامارة يجوز اسنادها الى غير المسلمين (٢١) . فالماوردي يقول ، على ما يقول به الاستاذ بكار ، متى ما استطاع انسان ان يفتح قطراً عنوة وينصب نفسه اميراً قيد سلطة الخليفة يجوز ان يعترف به الخليفة اميراً للفتح وان يبقى في منصبه لادارة ذلك القطر على ان تكون الامامة للخليفة بالطبع (٢٢) .

---

(٢٠) بكلر ص ٣٤ .

(٢١) بكلر ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٢) يستعمل الاستاذ بكلر « كتاب الاحكام السلطانية » طبعة بون Bonn) سنة ١٨٥٣ لناشره انكر (Enger) ص ٥٤ — ٥٧ . ويقابل هذه الصفحات بالطبعة المصرية (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٩) الطبعة الأولى ص ٢٤ — ٢٩ . ويقول الاستاذ بكلر بان الماوردى وضع كتابه فى منتصف القرن الحادى عشر فهو يقرر قاعدة شرعية بعد مضى قرنين من عهد الرشيد . ولكن الاستاذ بكلر يسترسل فيقول

فاذا صحت هذه الاسس فالاستاذ بكار يتقدم لتعريف مركز شارلمان الشرعي تعريفاً ادق مما سبق . فهو يقول بأن شارلمان اصبح « اميراً للفتح » على اسبانيا و « والياً » على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي [٢٣] فهو بهذا الاعتبار يعد وارثاً لامارة الفتح على اسبانيا للملك بين القيصر ، القائد العلاء بن مغيث . وبموجب مفاوضات سنة ٧٩٧ وما تلاها اسندت اليه ايضاً ولاية القدس فاصبح حامياً للاراضي المقدسة . وقد اعترف بهذا الوضع بطريق القدس بدليل ارساله مفاتيح كنيسة القيامة والراية التي ترمز الى الطاعة والولاء الى الوالي الجديد .

بيد ان هذا الوضع الشرعي لم يدم طويلا في نظر الاستاذ بكار خلاف ما ذهب اليه المسيو بريبه . لأن تسوية المنازعات بين العباسيين والبيزنطيين من جهة ، وبين البيزنطيين والفرنك من جهة

ان الماوردى كان على مذهب الامام الشافعى ، وان الامام هذا كان يحاضر فى بغداد الى ان توفى سنة ٨٢٠ . فالماوردى اذن يقرر قاعدة شرعية معترف بها فى دار الاسلام منذ عهد الرشيد . وبهذا الاعتبار محتمل انها كانت مرعية فى عهد الخليفة فى علاقاته الخارجية . راجع بكلر ص ٣٥ .

(٢٣) بكلر ص ٣٥ .

اخرى، اضعفت رابطة المصالح المشتركة بين الخليفة والامبراطور (٢٤) وكذلك ان انشغال الخليفة هرون الرشيد بامور فارس وعناية شارلمان بأمور الغرب صرفا نظر العاهلين عن الاراضي المقدسة (٢٥) وكان نفوذ الامويين في اسبانيا ايضاً تعاظم فبسطوا سيادتهم على معظم بقاع ايبريا ، وتم في الواقع الصلح بين الامويين وشارلمان وانتهى النزاع بينهما. ولا ريب في ان هذه الظروف الجديدة عملت عملها في الاقلال من شأن الصلات بين هرون الرشيد وشارلمان وقطعت حركة تبادل الرسل والسفراء بينهما . ثم جاء الامين بعد الرشيد فشغلته الحروب الداخلية ولاسيما النزاع الذي نشأ بينه وبين اخيه المأمون . وتوفي ايضاً شارلمان سنة ٨١٤ فانتهى عهد المراسلات الدبلوماطيقية بين العباسيين والفرنك . وكان خلفاء المأمون وشارلمان اعرضوا عن العناية بالشؤون الخارجية نظراً الى الاحوال العصيبة في داخل ممتلكاتهم . أجل ان بعثة دبلوماطيقية كانت أوفدت سنة ٧٣١ إلى الشرق لما ارسل المأمون وفداً في بدء نزاعه مع البيزنطيين إلى بلاط لويس (٢٦) ، ولكنها لم تقو على اعادة المصالح المشتركة

---

(٢٤) بكلر ص ٣٧ .
(٢٥) بكلر ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢٦) بكلر ص ٤٠ .

بين بغداد وآخن لأن مجرى التاريخ كان معا كسا هذا التقارب .

٥ — نقد نظرية الاستاذ بكلر

في نظرية الاستاذ بكلر والمركز الشرعى الذي حددته للامبراطور شارلمان بضع نقاط تستوجب الدرس والتمحيص قبل قبولها أو رفضها . فهو يضع نظرية تستند غالباً إلى مفترضات يقررها بلا مستندات أو وثائق تؤيدها تأييداً واضحاً . ثم ان الناحية القانونية منها لا تتفق والقواعد الشرعية المرعيــة حينئذ فى العالم الاسلامي . والذي نراه ان نظرية الاستاذ بكلر ضعيفة من الوجهتين التاريخية والشرعية .

اما من الناحية التاريخية فالمصادر والمستندات الأولى لا تسوغ للباحث ان يقرر حوادث لا تذكرها ولا تشير اليها المصادر المعاصرة سواء اكان ذلك بالذات أم بالواسطة . لأنه اذا لم تشر المصادر المعاصرة إلى حادثة أو حقيقة تاريخية فكيف يصح للباحث ان يفرضها فرضاً دون ان تشير اليها المصادر ولو بالواسطة ؟ وهذه قاعدة عامة في اصول البحث يسير عليها كل باحث مدقق . ونظرية الاستاذ بكلر هي من المفترضات التي لا تؤيدها المصادر

والمستندات المعاصـــرة على الاطلاق . لاننا اذا دققنا « الاخبار الملكيـة » وهي معتبرة أوثق مصـدر وصلنا عن اعمال الأمبرطور شارلمان لا نجد البتـة ما يؤيد نظرية الأستاذ بكار . أجل ان اشتراك المصالح العباسية والفرنكيـة تساعد على تكوين جبهة معادية للجبهة البيزنطية والأموية ، ولـكن ذلك لا يعني ابداً ان الخليفـة عقد حلفاً لاطلاق يد الأمبراطور في اسبانيا أو انه عينه حامياً على الاراضي المقدسة في فلسطين ، لأن مثل هذا الاستنتاج يفتقر إلى ادلة ايجابية أخرى غير اشـتراك المصالح وارسال البطريق مفاتيـح كنيسة القيامة الى الامبراطور شارلمان .

اما من الوجهة القانونية فنظرية الاستاذ بكار لا تقل ضعفاً عن وجهتها التاريخية لانها لا تتفق والقواعد العامة في الشرع الاسلامي . فالاستـاذ بكار يقرر (اولا) ان الخليفـة اعترف بالأمبراطور « امير فتح » على اسبانيا و (ثانياً) انه عين الامبراطور « والياً » على القدس . ولا يخفى ان امير الفتح هو عامل خليفة المسلمين للقيام بالفتح ونشر الدين الاسلامي في خارج « دار الاسلام [٢٧] » .

---

(٢٧) هذه الامارة تكون اما عامة واما خاصة ، فالعامة قد تكون عن اختيار او اضطرار من الخليفة وهى تتناول امارة الاقليم والنظر فى تدبير الجيش وجباية الخراج وحماية الدين واقامة الحدود وتسيير الحجيج

وواضح ان القيام بمثل هذا الواجب يتطلب من المرء ان يكون مسلماً لايفاء شروطه (٢٨) . ولا صحة لقول الاستاذ بكلر ان فى « كتاب الاحكام السلطانية » للماوردي ما يجيز اسناد مثل هذا المنصب إلى غير المسلمين (٢٩) . فاذا ثبت قولنا هذا فان تعيين

وجهاد من يليه من الاعداء . راجع الماوردى : « كتاب الاحكام السلطانية » طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٩ ، ص ٢٤–٢٥ . اما الامارة الخاصة فهى : « ان يكون الامير مقصور الامارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم وليس له ان يتعرض للقضاء والاحكام ولجباية الخراج والصدقات ... » . راجع الماوردى ص ٢٦ .

(٢٨) يذكر ابن رشد فى « كتاب المقدمات الممهدات » ستة شروط يجب ان تتوفر فى المجاهد فى سبيل الدين . واول هذه الشروط هى الايمان بالدين الاسلامى بحكم الآية ١٠ من سورة الصف . ويستنتج من ذلك ان امير الفتح الذى يقوم بالجهاد هو اولى ان يتوفر فيه هذا الشرط . راجع ابن رشد : « كتاب المقدمات الممهدات » طبع القاهرة ، سنة ١٣٢٥ هجرية ، ج ١ ، ص ٢٦٦ . راجع ايضا عن شروط الجهاد وواجبات امارته فى قسم الجهاد من كتاب « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس » لناشره لويس مرسى (Louis Mercier) مطبعة كتنر (Paul Geuthner) ، باريس ، سنة ١٩٣٩ .

(٢٩) راجع بكلر ص ٣٤ . قارن قول الاستاذ بكلر بالشروط الشرعية لامارة الفتح كما فى « كتاب الاحكام السلطانية » للماوردى ص ٢٤ – ٢٩ .

الامبراطور شارلمان « امـير فتح » على اسبانيا لا يتفق واحـكام الشرع الأسلامي الذي يبني عليه الأستاذ بكلر نظريته .

(ثانياً) تفرض نظرية الأستاذ بكلر ان شارلمان اصبـح « واليـاً » على القـدس وقد انيطت به حماية الأراضي المقـدسة . والواقع أن الشروط الشرعية للولاية لا تختلف من حيث الأساس عن الشروط الشرعية للامارة العامة ما عدا فريضة « جهاد من يليه من الأعداء » . فاذا فسرنا نظرية الاستاذ بكلر بانه يريد الولاية على مسيحيي الشـرق فقط ففي ذلك ايضـاً ما يتعارض والحقـائق التاريخية الراهنة ، لأن الأمبراطور بصفة كونه تابعاً للخليفة لم يدفع الجزية وليس هناك ما يشير إلى انه فعل ذلك[٣٠] . كما ان اعطاء حق الحماية لشارلمان معناه ان الخليفة قد رفع حمايته عن الذميين فى الاراضي المقدسة وانهم اصبحوا خارج حظيرة دار الاسلام . وهذا ايضاً لا يتفق والواقع إذ ليس هناك ما يبين ان ذمي الأراضي المقدسة قد أعتبروا خارج حظيرة دار الاسلام أو انهم تركـوا مركزهم كذميين .

(٣٠) راجع نقد الاستاذ جورنسن لكتاب الاستاذ بكلر فى مجلة (*Speculum*) المجلد ٧ ، العدد الاول (كانون الثاني سنة ١٩٣٤) ص ١١٨ .

والذي نراه ان الأراضي المقدسة لم تكن موضوعا للمساومة بين الخليفة والأمبراطور وان المفاوضات حولها لم تكن ذات صبغة سياسية . ومن المحتمل ان يكون الامبراطور شارلمان طلب تسهيل الحج للفرنك أو انه أرسل اعانات مالية لتسهيل العلاقات الدينية بين أوروبا والشرق ولكن هذه الأعمال ليس فى الامكان تفسيرها على اساس الحصول على امتيازات سياسية فى الاراضي المقدسة . اما ان تفسير ارسال البطريق مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارلمان على وجه سياسي فهذا ايضاً يتعارض والقواعد الشرعية بشأن موقف « أهل الذمة » ، لأن رؤساء الذميين ، بل وكل ذمي فى دار الاسلام ، لم يكن بوسعه شرعا ان يتفاوض مع ملوك أو امراء « دار الحرب » فيما يتعلق « بدار الاسلام (٣١) » . وتفسير ارسال المفاتيح والراية على اساس التنازل لشارلمان عن الأراضي المقدسة

---

(٣١) راجع الماوردى : « كتاب الاحكام السلطانية » ص ١٢٩ . وبوسع المرء ان يستنتج ضمنا هذه القاعدة ايضا من المعاهدات التى عقدها الذميون مع امراء الفتح الاسلامى . راجع المعاهدة المعقودة بين عمر بن الخطاب وبطريق القدس سنة ١٧ هجرية (سنة ٦٣٨ ميلادية) فى الطبرى : « تاريخ الرسل والملوك » لناشره دى غويى (de Geoje) مطبعة ليدن سنة ١٨٩٣ ، السلسلة الاولى ، ج ٥ ، ص ٢٤٠٥ — ٢٤٠٦ .

هو مخالفة هذا العهد ويستوجب غضب الخليفة . والذي نراه ان البطريق اغتنم فرصة الصلات الودية التي نشأت بين الخليفة والامبراطور فارسل اليه المفاتيح والراية رمزاً الى التقدير واستحساناً للاعانات المالية التي ارسلها شارلمان الى الاراضي المقدسة .

*

كلمة ختامية

وبوسع القاريء ان يستنتج الآن ان النظريات التي جاء بها كل من المسيو بريبه وكلينكلوز وبكلر فيما يتعلق بحقوق الحماية أو الامتيازات السياسية فى الاراضي المقدسة وحقوق الامارة فى اسبانيا يجب اهمالها واعتبارها ضعيفة لا تستند على اسس علمية تاريخية أو شرعية . ذلك لأن الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان كانت صلات ودية قبل كل شيء ولكنها — بمدى ما تسوغ لنا المصادر استنتاجه — لم تسفر عن تحالف سياسي ما بينهما مع اقرارنا بان الظروف التي حاطت بها والدوافع التي ادت إلى التقارب بين العاهلين كانت على الأكثر سياسية . أو بجملة اخرى ان المصالح السياسية المشتركة بين الخليفة والامبراطور (اي العداء مع البيزنطيين والامويين فى الاندلس) ادت إلى فتح المفاوضات بينهما والى

تبادل السفراء والهدايا ، ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن تأليف حلف سياسي أو عقد معاهدة تحالف بين العاهلين .

والذي نراه ان المصادر اللاتينية المعاصرة بالغت كثيراً في خطورة هذه الصلات وفي شأنها السياسي فنسجت حول البعثات الدبلوماطيقية ما شاءت لها مخيلات مؤلفيها ان ينسجه من الاراء تعظيماً لمركز الامبراطور شارلمان فى الغرب ، ولا سيما ما دونه راهب فى تاريخ حياة شارلمان بعد خمسين سنة من وفاته ، وقد اعتمد هذا الراهب كثيراً على قوته المخيلة (١) فنسج حول وفود الخليفة والبطريق من مبتدعات ذهنه ومن العبارات المبهمة التي ذكرها آينهارد اراء خيالية دفعت فيما بعد بعض الكتاب المحدثين إلى وضع نظريات الحماية والامتيازات السياسية فى الاراضي المقدسة(٢).

———:o:———

(١) راجع كتاب هلفن : « دراسات انتقادية لتاريخ شارلمان » ص ١٤٢ وعنوان الكتاب :
L. Halphen, *Etudes Critiques sur l'Histoire de Charlemagne* (Paris : Félix Alcan, 1921), P. 142.

(٢) راجع رأى رنسيمان فى مقاله « شارلمان وفلسطين » ص ٦١٩ :
Steven Runciman, "Charlemagne and Palestine", *English Historical Review*, Vol.L. (Oct. 1935) , P. 619.
وهنا لا بد من الاشارة ايضا الى الفكرة الخيالية التى ذكرت بعد قرن من وفاة الامبراطور شارلمان بشأن حملته الصليبية على الاراضى المقدسة . ولا حاجة الى نقد هذه الفكرة الخيالية .



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٩ (حاشية)	آخرين	آخران
٣	٤	المصارر	المصادر
١١	١٣ (الحاشية)	لناشر	لناشره
١٢	٣	ويضمونها	ويضموها
٢٠	١٣	تناصر	تناصرها
٤٥	٦	ونزعات	ونزاعات
٤٨	١٢ (الحاشية)	محمدالخضري :	محمدالخضري : (الدولةالعباسية)

